ولو أُغلق باب التوبة فى وجه العاصى ليئس وتحول إلى (فاقد) يشقى به المجتمع طوال حياته ، إذن : ففتْح باب التوبة رحمة بالتائب ، ورحمة بمجتمعه ، بل وبالإنسانية كلها ، رحمة بالعاصى وبمَن اكتوى بنار المعصية .

﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

لماذا استخدم هنا (عسى) الدالة على الرجاء بعد أنْ قال ﴿ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [القصص] ولم يقل : يكون من المفلحين فيقطع لهم بالفلاح ؟

قالوا : لأنه ربما تاب ، لكن عسى أن يستمر على توبته ليستديم الفلاح أو نقول أن (عسى) من الله تدل على التحقيق ، وسبق أنْ قُلْنا : إن الرجاءات على درجات : فالرجاء فى المتكلم أقوى من الرجاء فى الغائب ، فإنْ كان الرجاء فى الله فهو أقوى الرجاءات كلها .

لذلك يقول سبحانه فى خطابه لنبيه محمد ﷺ : ﴿ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [الإسراء] فأىُّ رجاء أقوى من الرجاء فى الله ؟

إذن : (عسى) رجاء حين تصدر ممن لا يملك إنفاذ المرجو ، وتحقيق حين تصدر ممَّنْ يملك إنفاذ المرجو ، وهو الحق سبحانه وتعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) ﴾

كنا ننتظر أنْ يُخبرنا السياق بما سيقع على المشركين من العذاب ، لكن تأتى الآية ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ .. (٦٨) ﴾ [القصص] وكأن الحق سبحانه يقول : أنا الذى أعرف أين المصلحة ، وأعرف كيف أُريحكم من شرِّهم ، فدعونى أخلق ما أشاء ، وأختار ما أشاء ، فأنا الرب المتعهد للمربى بالتربية التى تُوصله إلى المهمة منه .

والمربَّى قسمان : إما مؤمن وإما كافر ، ولا بُدَّ أنْ يشقى المؤمن بفعل الكافر ، وأنْ يمتد هذا الشقاء إنْ بقى الكافر على كفره ؛ لذلك شَرعتُ له التوبة ، وقَبلْتُ منه الرجوع ، وهذا أول ما يريح المؤمنين .

ومعنى : ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ .. (٦٨) ﴾ [القصص] يعنى : لا خيارَ لكم ، فدعونى لأختار لكم ، ثم نفِّذوا ما أختاره أنا .

أو : أن هذه الآية ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ .. (٦٨) ﴾ [القصص] قيلت للردِّ على قولهم : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف] . يقصدون الوليد بن المغيرة أو عروة بن مسعود الثقفى ، فردَّ الله عليهم : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. (٣٢) ﴾ [الزخرف]

فكيف يطمعون فى أنْ يختاروا هم وسائل الرحمة ، ونحن الذين

قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، فجعلنا هذا غنياً ، وهذا فقيراً ، وهذا قوياً ، وهذا ضعيفاً ، فمسائل الدنيا أنا متمكن منهم فيها ، فهل يريدون أنْ يتحكموا فى مسائل الآخرة وفى رحمة الله يوجِّهونها حسب اختيارهم ؟!!

﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ .. (٦٨)﴾ [القصص] أى : الاختيار فى مثل هذه المسائل .

ويجوز ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ .. (٦٨)﴾ [القصص] أى : المؤمنون ما كان لهم أنْ يعترضوا على قبول توبة الله على المشركين الذين آذوهم ، يقولون : لماذا تقبل منهم التوبة وقد فعلوا بنا كذا وكذا ، وقد كنا نود أن نراهم يتقلبون فى العذاب ؟

والحق تبارك وتعالى يختار ما يشاء ، ويفعل ما يريد ، وحين يقبل التوبة من المشرك لا يرحمه وحده ، ولكن يرحمكم أنتم أيضاً حين يُريحكم من شرِّه .

وقوله : ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨)﴾ [القصص] أى : تعالى الله وتنزَّه عما يريدون من أنْ يُنزلوا الحق سبحانه على مرادات أصحاب الأهواء من البشر ، ولو أن الحق سبحانه نزل على مرادات أصحاب الأهواء من البشر - وأهواؤهم مختلفة - لفسدتْ حياتهم جميعاً .

ألا ترى أن البشر مختلفون جميعاً فى الرغبات والأهواء ، بل وفى مسائل الحياة كلها ، فترى الجماعة منهم فى سنٍّ واحدة ، وفى مركز اجتماعى واحد ، فإذا توجَّهوا لشراء سلعة مثلاً اختار كل منهم نوعاً ولوناً مختلفاً عن الآخر .

﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

ما تُكِنُّ صدورهم أي : السر ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ﴾ [طه] والسر : ما تركتَه في نفسك محبوساً ، وأسررْتَه عن الخَلْق لا يعرفه إلا أنت ، أو السر : ما أسررتَ به إلى الغير ، وساعتها لن يبقى سراً ، وإذا ضاق صدرك بأمرك ، فصدر غيرك أضيق .

وإذا كان الحق سبحانه يمتنُّ علينا بأن علمه واسع يعلم السر ، فهو يعلم الجهر من باب أَوْلَى ؛ لأن الجهر يشترك فيه جميع الناس ويعرفونه . أما الأخفى من السر ، فلأنه سبحانه يعلم ما تُسره في نفسك قبل أنْ يوجد في صدرك ، وهو وحده الذي يعلم الأشياء قبل أن توجد .

ولك أن تسأل : إذا كان من صفاته تعالى أنه يعلم السر وما هو أخفى من السر ، فماذا عن الجهر وهو شيء معلوم للجميع ؟ وهذه المسألة استوقفتْ بعض المستشرقين وأتباعهم من المسلمين (المنحلين) الذين يجارونهم .

وحين نستقرىء آيات القرآن نجد أن الله تعالى سوَّى في علمه تعالى بين السر والجهر ، فقال سبحانه ﴿ سَوَاءٌ مِنكُم مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الرعد]

وقال سبحانه : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الملك]

والآية التي معنا : ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [القصص] وفي هذه الآيات قدَّم السر على الجهر ، أما في قوله تعالى :

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ۝ إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝ ﴾ [الأعلى]

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ۝ ﴾ [الأنبياء] فقدَّم العلم بالجهر على العلم بالسرِّ ، ولا يقدم الجهر إلا إذا كان له ملحظية خفاء عن السر ، وهذه الملحظية غفل عنها السطحيون ، فأخطأوا فى فهم الآية .

فأنت مثلاً لو أسررتَ فى نفسك شيئاً ، فربما ظهر فى سقطات لسانك أو على ملامح وجهك ، وربما خانك التعبير فدلَّ على ما أسررْته ، ألم يقل الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ .. ۝ ﴾ [محمد]

إذن : هناك قرائن وعلامات نعرف بها السر ، أما الجهر وهو من الجماعة ليس جهراً واحداً ؛ لأنه مقابل بالجمع : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ۝ ﴾ [الأنبياء] فالمعنى : ويعلم ما تجهرون وما تكتمون .

ولك أن تتابع مظاهرة لجمع غفير من الناس ، يهتف كل منهم هتافاً ، أتستطيع أن تميز بين هذه الهتافات ، وأنْ تُرجع كلاً منها إلى صاحبها ؟ هذا هو اللغز فى الجهر والملحظ الذى فاتهم تدبُّره ، لذلك امتنَّ الله علينا بعلمه للجهر من القول الذى لا نعلمه نحن مهما أوتينا من آلات فَرْز الأصوات وتمييزها .

لذلك يقولون : لا تستطيع أنْ تُحدِّد جريمة فى جمهور من الناس ؛ لأن الأصوات والأفعال مختلطة ، يستتر كلٌّ منها فى الآخر كما يقولون : الفرد بالجمع يُعْصَم .

ويقولون : الجماهير ببغائية ، كما قال شوقى فى مصرع كليوباترا ، لما انهزموا فى يوم (أكتيوما) وأشاعوا أنهم انتصروا ، لكن هذه الحيلة لا تنطلى على العقلاء من القوم ، فيقول أحدهم للآخر عن غوغائية الجماهير :

اسْمع الشَّعْبَ دُيُونُ كَيْفَ يُوحُون إليْه
مَلأ الجوَّ هتافاً بحيَاتيْ قَاتليْه
أثَّر البهتانُ فيه وَانْطلى الزُّور عليْه
يَا لَهُ مِنْ ببغاء عقلُه فى أُذُنَيْه

إذن : فَعلْم الجهر هنا مَيْزة تستحق أنْ يمتنَّ الله بها ، كما يمتنُّ سبحانه بعلم السر .

وقال سبحانه ﴿ وربُّكَ يعْلَمُ .. (٦٩) ﴾ [القصص] ليُطمئن رسول الله ؛ لأنه سبحانه ربه ، والمتولى لتربيته والعناية به ، يقول له : لا تحزن مما يقولون ، فأنا أعلم سرَّهم وجهرهم ، فإنْ كنتَ لا تعرف ما يقولون فأنا أعرفه ، وسوف أخبرك به ، ألم يقل سبحانه لنبيه ﷺ : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. (٨) ﴾ [المجادلة]

فأخبره ربه بما يدور حتى فى النفوس ، كأنه سبحانه يقول لرسوله : إياك أن تظن أننى سأؤاخذهم بما عرفتَ من أفعالهم فحسب ، بل بما لا تعلم مما فعلوه ، ليطمئن رسول الله أنه سبحانه يُحصى عليهم كل شيء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

الله : هو المعبود بحقٍّ ، وله صفات الكمال كلها ، وهو سبحانه ﴿لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. ﴿٧٠﴾﴾ [القصص] وما دام هو وحده سبحانه ، فلا أحدَ يفتن عليه ، أو يستدرك عليه بشيء ، وسبق أن قال لهم : هاتوا شركاءكم لنفصل فى مسألة العبادة علانية و (نفاصل) : من صاحب هذه السلعة : أى يوم القيامة .

ومعنى ﴿الأُولَىٰ .. ﴿٧٠﴾﴾ [القصص] أى : الخَلْق الذى خلقه الله ، والكون الذى أعدَّه لاستقبال خليفته فى الأرض : الشمس والقمر والنجوم والشجر والجبال والماء والهواء والأرض ، فقبل أنْ يأتى الإنسان أعدَّ الله الكونَ لاستقباله .

لذلك حينما يتكلم الحق سبحانه عن آدم لا يقول : إنه أول الخَلْق ، إنما أول بنى آدم ، فقد سبقه فى الخلق عوالم كثيرة ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان] أى : لم يكن له وجود .

وإعداد الكون لاستقبال الإنسان جميل يستوجب الحمد والثناء ، فقد خلق الله لك الكون كله ، ثم جعلك تنتفع به مع عدم قدرتك عليه أو وصولك إليه ، فالشمس تخدمك ، وأنت لا تقدر عليها ولا تملكها ، وهى تعمل لك دون صيانة منك ، ودون أن تحتاج قطعة غيار ، وكذلك الكون كله يسير فى خدمتك وقضاء مصالحك ، وهذا كله يستحق الحمد .

وبعد أنْ خلقك الله فى كون أُعدّ لخدمتك تركك ترتع فيه ، ذرة فى ظهر أبيك ، ونطفة فى بطن أمك إلى أنْ تخرج للوجود ، فيضمك حضنها ، ولا يكلفك إلا حين تبلغ مبلغ الرجال وسنَّ الرشد ، ومنحك العقل والنضج لتصبح قادراً على إنجاب مثلك ، وهذه علامة النضج

النهائى فى تكوينك كالثمرة لا تخرج مثلها إلا بعد نُضْجها واستوائها .

لذلك نجد من حكمة الله تعالى ألاَّ يعطى الثمرة حلاوتها إلا بعد نُضْج بذرتها ، بحيث حين تزرعها بعد أكْلها تنبت مثلها ، ولو أكلت قبل نُضْجها لما أنبتت بذرتها ، ولانْقرض هذا النوع ؛ لذلك ترى الثمرة الناضجة إذا لم تقطفها سقطت لك على الأرض لتقول لك : أنا جاهزة .

لذلك نلحظ عندنا فى الريف شجرة التوت أو شجرة المشمش مثلاً يسقط الثمر الناضج على الأرض ، ثم ينبت نباتاً جديداً ، يحفظ النوع ، ولو سقطت الثمار غير ناضجة لما أنبتت .

وكذلك الإنسان لا ينجب مثله إلا بعد نُضْجه ، وعندها يُكلِّفه الله ويسأله ويحاسبه . إذن : على الإنسان أنْ يسترجع فضل الله عليه حتى قبل أنْ يستدعيه إلى الوجود ، وأنْ يثق أن الذى يُكلِّفه الآن ويأمره وينهاه هو ربُّه وخالقه ومُربِّيه ، ولن يكلِّفه إلا بما يُصلحه ، فعليه أنْ يسمع ، وأنْ يطيع .

وقوله تعالى : ﴿ وَالآخِرَةِ .. (٧٠) ﴾ [القصص] يعني : له الحمد فى القيامة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠) ﴾ [يونس] فيحمد الله فى الآخرة ؛ لأنه كان يمتعنى فى الدنيا إلى أمد ، ويمتعنى فى الدنيا على قَدْر إمكاناتى ، أما فى الآخرة فيعطينى بلا أمد ، وعلى قَدْر إمكاناته هو سبحانه ، فحين نرى هذا النعيم لا نملك إلا أنْ نقول : الحمد لله ، وهكذا اجتمع لله تعالى الحمد فى الأولى ، والحمد فى الآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) ﴾ [القصص] لأن الآخرة ما كانت إلا للحكم وللفصل فى الخصومات ، حيث يعرف كلٌّ

مـا له وما عليـه ، فـلا تظن أن الذين آذوْك وظلمـوك سيُـفلتـون من قبضتنا .

﴿وَإِلَيْـهِ تُرْجَـعُـونَ ﴿٧٠﴾﴾ [القـصص] أى : للحـسـاب ، وفى قـراءة (تَرْجِـعـون) لأنهم سـيرجـعـون إلينا ويأتوننا بأنفـسـهم ، كـأنهم مضبوطون على ذلك ، كالمنبـه تضبطه على الزمن ، كذلك هم إذا جاء موعدهم جاءونا من تلقاء أنفسهم ، دون أن يسوقهم أحد .

وعلى قـراءة ﴿تُرْجَـعُـونَ ﴿٧٠﴾﴾ [القـصص] إياكم أن تظنوا أنكم بإمكانكم أن تتـأبَّوْا علينا ، كـمـا تأبَّيـتُم على رسُلنا فى الدنيـا ؛ لأن الداعى فى الدنـيـا كـان يأخـذكم بالرفق واللـين ، أمـا داعى الآخـرة فـيجـمعكـم قَسْـرًا ورَغْمـاً عنكم ، ولا تسـتطيـعون منه فكاكـاً ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ[1] إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾﴾ [الطور]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا[2] إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

(١) يُدعون : أى يُدفعون دفعاً عنيفاً بقهر وقسوة . [القاموس القويم ١/٢٢٨] .

(٢) السرمد : دوام الزمان من ليل أو نهار . وليل سرمد : طويل . قال الزجاج : السرمد الدائم فى اللغة . والسرمد : الدائم الذى لا ينقطع . [لسان العرب ـ مادة : سرمد] .

يُعدِّد الحق ـ تبارك وتعالى ـ نعمه على عبيده فى شيئين يتعلقان بحركة الحياة وسكونها ، فالحركة تأتى بالخير للناس ، والسكون يأتى بالراحة للمتعَب من الحركة ، والإنسان بطبيعته لا يستطيع أنْ يعطى ويتعب إلا بعد راحة ، والذى يتحدَّى هذه الطبيعة فيسهر الليل ويعمل بالنهار لا بُدَّ أنْ ينقطع ، وأن تُنهك قواه فلا يستمر .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ① وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ② وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ③ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ④ ﴾ [الليل]

فكلٌّ من الليل والنهار له مهمة ، وكذلك الرجل والمرأة ، فإياكم أنْ تخلطوا هذه المهام ، وإلا فسدت الحياة وأتعبتكم الأحداث ، فقبل الكهرباء ودخول (التليفزيون والفيديو) المنازل كان يومنا يبدأ فى نشاط مع صلاة الفجر ، لأننا كنا ننام بعد صلاة العشاء ، أما الآن فالحال كما ترى . كنا نستقبل يومنا بحركة سليمة نشطة ؛ لأننا نستقبل الليل بسكون سليم وهدوء تام .

والحق سبحانه فى معرض تعداد نعمه علينا يقول ﴿ أَرَأَيْتُمْ .. ⑦١ ﴾ [القصص] يعنى : أخبرونى ماذا تفعلون ﴿ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ .. ⑦١ ﴾ [القصص] يعنى : طوال حياتكم ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ .. ⑦١ ﴾ [القصص] والسرمد : الدائم المستمر .

وقال ﴿ بِضِيَاءٍ .. ⑦١ ﴾ [القصص] ولم يقل بنور ؛ لأن النور قد يأتى من النجوم ، وقد يأتى من القمر ، أمَّا الضياء وهو نور وأشعة وحرارة ، فلا يأتى إلا من الشمس .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا .. ⑤ ﴾ [يونس]

وقال : ﴿ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ .. (٧١) ﴾ [القصص] ولم يقُلْ : مَنْ يأتيكم بضياء ليلفت نظرنا إلى أن هذه المسألة لا يقدر عليها إلا إله ، ولا إله إلا الله ، وفى الضياء تبصرون الأشياء ، وتسيرون على هُدىً ، فتؤدون حركات حياتكم دون اصطدام أو اضطراب ، وبالضياء أعايش الأشياء فى سلامة لى ولها ، وإلاَّ لو سِرْنا فى الظلام لتحطمنا أو حطَّمنا ما حولنا ؛ لأنك حين تسير فى الظلام إمَّا أنْ تحطم ما هو أقل منك ، أو يحطمك ما هو أقوى منك .

وكما يكون الضياء فى الماديات يكون كذلك له دور فى المعنويات ، وضياء المعنويات القيم التى تحكم حركة الحياة وتعدلها ، وتحميك أنْ تُحطِّم مَنْ هو أضعف منكَ ، أو أنْ يُحطمك الأقوى منك ؛ لذلك كان منطقياً أن يقول تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. (٤٣) ﴾ [الأحزاب]

والمراد : من ظلمات المعانى إلى نور القيم ، لا ظلمات المادة لأننى لا أستغنى عنه لراحتى ، فله مهمة عندى لا تقلُّ عن مهمة النور لذلك يقول تعالى فى وصفه لنوره عز وجل ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ .. (٣٥) ﴾ [النور]

نور مادى تُبصرون به الأشياء من حولكم ، فلا تتخبطون بها ، فتسلَم حركتكم ، وهذا النور المادى يشترك فيه المؤمن والكافر ، وينتفع به المطيع والعاصى ، فلم يضنَّ به على أحد من خَلْقه . أما النور المعنوى نور الهداية ونور اليقين والقيم ، فهذا يرسله الله على يدَىْ رسله ، فإذا أخذ المؤمن النورين انتفع بهما فى الدنيا ، وامتد نفعه بهما إلى يوم القيامة ؛ لذلك قال بعدها :

﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ .. (٣٥) ﴾ [النور]

ولأن الآية الكريمة بدأت بقُلْ ، فمن المناسب أنْ تختم بقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) ﴾ [القصص] يعنى : اسمعوا ما أقول لكم وتدبروه .

ثم يمتنُّ الله تعالى بالآية المقابلة لليل ، وهى آية النهار : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ .. (٧٢) ﴾ [القصص] يعنى : دائم لا نهايةَ له ﴿ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ [القصص]

تلحظ أن هاتين الآيتين على نَسَق واحد ، لكن تذييلهما مختلف ، مما يدلُّ على بلاغة وإعجاز القرآن ، فلكلٍّ معنىً ما يناسبه ، ففى آية الليل قال ﴿ أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١) ﴾ [القصص] وفى آية النهار قال ﴿ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ [القصص] ذلك لأن العين لا عملَ لها فى الليل إنما للأذن ، فأنت تسمع دون أنْ ترى ، وبالأذن يتمُّ الاستدعاء .

أما فى النهار وفى وجود الضوء ، فالعمل للعين حيث تبصر ، فهو إذن ختام حكيم للآيات يضع المعنى فيما يناسبه .

ثم يُجمل الله تعالى هاتين الآيتين فى قوله سبحانه :

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾

بعد أنْ فصَّل الله تعالى القولَ فى الليل والنهار كلٌّ على حدة جمعهما ؛ لأنهما معاً مظهر من مظاهر رحمة الله ، وفى الآية ملمح بلاغى يسمونه « اللف والنشر » ، فبعد أن جمع الله تعالى الليل والنهار أخبر عنهما بقوله : ﴿ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٧٣) ﴾ [القصص] ثقةً منه تعالى بفطْنة السامع ، وأنه سيردُّ كلاً منهما إلى ما يناسبه ، فالليل يقابل ﴿ لِتَسْكُنُوا فِيهِ .. (٧٣) ﴾ [القصص] ، والنهار يقابل ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٧٣) ﴾ [القصص]

فاللفُّ أى : جَمْع المحكوم عليه معاً فى جانب والحكم فى جانب آخر ، والنشْر : ردَّ كلٍّ حكم إلى صاحبه .

وضربنا لذلك مثلاً بقول التيمورية :

قَلْبى وجَفْنى واللسَانُ وخَالقى   رَاضٍ وبَاكٍ شَاكرٌ وغَفُور

فجمعتْ المحكوم عليه فى الشطر الأول والحكم فى الشطر الثانى ، وعليك أنْ تعيد كلَّ حكم إلى صاحبه .

والليل والنهار آيتان متكاملتان ، وبهما تنتظم حركة الحياة ؛ لأنك إنْ لم ترتح لا تقوى على العمل ؛ لأن لك طاقة ، وفى جسمك مُولِّدات للطاقة ، فساعةَ تتعب تجد أن أعضاءك تراخَتْ وأُجهدَتْ ، وهذا إنذار لك ، تُنبِّهك جوارحك أنك لم تَعُدْ صالحاً للحركة ، ولا بُدَّ لك من الراحة لتستعيد نشاطك من جديد .

والراحة تكون بقدر التعب ، فربما ترتاح حين تقف مثلاً فى حالة السير ، فإنْ لم يُرِحْك الوقوف تجلس أو تضطجع ، فإنْ زاد التعب غلبك النوم ، وهو الرَّدْع الذاتى الذى يكبح جماح صاحبه إنْ تمرد على الطبيعة التى خلقها الله فيه .

ومن عجب أن البعض يخرج عن هذه الطبيعة ، فيأخذ مُنشِّطات حتى لا يغلبه النوم ، ويأخذ مُهدِّئات لينام ، ولو أسلم نفسه لطبيعتها ، فنام حينما يحضره النوم ، وعمل حينما يجد فى نفسه نشاطاً للعمل لأراحَ نفسه من كثير من المتاعب .

لذلك يقولون : النوم ضيف إنْ طلبك أراحك ، وإنْ طلبته أعْنتك ، وحتى الآن ، ومع تقدُّم العلوم لم يصلوا إلى سرِّ النوم ، وكيف يأخذ الإنسان فى هدوء ولُطْف دون أنْ يشعر ماهيته ، وأتحدى أن يعرف أحد منا كيف ينام .

لذلك جعل الله النوم آية من آياته تعالى ، مثل الليل والنهار والشمس والقمر ، فقال سبحانه : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ** .. ﴿٢٣﴾ [الروم]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِىَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

تقدمت المناداة قبل ذلك مرتين ومع ذلك لا يوجد تكرار لهذا المعنى ؛ لأن كلَّ نداء منها له مقصوده الخاص ، فالنداء فى الأولى خاص بمَنْ أشركوهم مع الله وما قالوه أمام الله تعالى : ﴿ رَبَّنَا هَـٰؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا .. ﴿٦٣﴾ ﴾ [القصص]

أما الثانية ، فالنداء فيها للمشركين ﴿ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [القصص]

أما هنا ، فيهتم النداء بمسألة الشهادة عليهم . إذن : فكلمة (أين) و (شركائى) و (الذين كنتم تزعمون) قَدْر مشترك بين الآيات الثلاثة ، لكن المطلوب فى كل قَدْر غير المطلوب فى القَدْر الآخر ، فليس فى الأمر تكرار ، إنما توكيد فى الكل[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥١٩٦/٧) : « المناداة هنا ليست من الله ، لأن الله تعالى لا يكلم الكافر لقوله تعالى ﴿ ولا يُكلِّمهم الله يوم القيامة .. ﴿١٧٤﴾ ﴾ [البقرة] لكنه تعالى يأمر مَنْ يوبخهم ويُبكِّتهم ، ويقيم الحجة عليهم فى مقام الحساب . وقيل : يحتمل أن يكون من الله وقوله ﴿ ولا يُكلِّمهم الله يوم القيامة .. ﴿١٧٤﴾ ﴾ [البقرة] حين يُقال لهم ﴿ اخسئوا فيها ولا تُكلِّمون ﴿١٠٨﴾ ﴾ [المؤمنون] .